البداوة نموذج ...

لقضايا منهجية فى البحث الاثنروبولوجى

بحث مقدم من

د. عبد الصمد مصطفى سالم

البداوة نموذج ...
لقضايا منهجية فى البحث الانثروبولوجى

بحث مقدم من د. عبد الصمد مصطفى سالم(*)

لقد شاع فى البحث الاجتماعى الاستخدام المتفاوت للعديد من القضايا العلمية بمفاهيم وتفسيرات متباينة، ترتب عليه استخدام مفاهيم وأدوات البحث فى غير مواضيعها السليمة، مما كان له أكبر الأثر على تدنى مستوى التحليل والنتائج، فتزايد لدى العديد من العلماء الإحساس بوجود هذا التكرار فى الاستخدام، وهذا يبدو بوضوح عند تناول مجموعة من المصطلحات والمفاهيم كالبداوة والحضر والريف والمجتمع المحلى وغيرها من الأنماط المجتمعية الثنائية فى إطار البحث الأنثروبولوجى، الذى كان يعالج تلك القضايا العلمية فى إطار مذاهب وفلسفات من يقومون بمعالجتها بعيداً عن تفحص طبيعة المفاهيم والتفسيرات. وهكذا ترسخت مثل تلك الدراسات على مفاهيم وتأويلات مذهبية دون النظر إلى الخصائص الذاتية لها، التى يجب أن تتجاوز مستوى تلك التحليلات أو التأويلات، مع ضرورة التأكيد على أهمية التنوع والتباين فى التفسيرات والتحليلات باعتبار أن ذلك يضفى عمقاً فى دراسة وتحليل الظاهرة، التى مرجعها الاهتمامات المختلفة لكافة نواحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .... الخ(١).

---

* مدرس الأنثروبولوجيا بكلية التربية بالعريش، جامعة قناة السويس.

(1) Hobart, Mark, (ed), 1993, An Anthropological Critique of development, the Growth of Ignorance, EIDOS (European inter university development opportunities study), London.

وهذا لاشك يؤدى بدوره إلى وجود فروق فى التقييم والرؤى والنتائج، أى بدوره إلى عدم إعطاء معرفة حقيقية بالظاهرة، أو فى إيجاد رؤية شاملة وليس من أجل السعى إلى إيجاد متطابقات فى النتائج على موضوع ما بعينه، غير أن هذا قدـيكون فى إطار البحث العلمي مفيداً، ولكنه فى حالات أخرى لا يصلح مما يصبح معه بالتالى التحليل والتفسير لا قيمة له على الإطلاق قد يصل بالبحث إلى نتائج خادعة، على هذا لابد أن يتواكب استخدام المفاهيم وما يرتبط بها من تفسيرات مع ما يتلاءم منهجياً ونظرياً بما يخدم طبيعة الظاهرة التى بصدد المعالجة.

وهذا أيضا ما ينطبق على البعض من المناهج العلمية التى تكون فى طبيعتها ذات صفة علمية صرفة، لذا فهى فى حاجة إلى إعادة نظر فى ضوء استخداماتها السابقة فى البحث السوسيولوجى، نتيجة كونها لم تستطع وضع إجابات على التساؤلات البحثية، خاصة أنه أعطت نتائج غير فعالة عن التطبيق، هذا فى حد ذاته قد أدركه علماء الأنثروبولوجيا أنفسهم، لهذا ذهبوا إلى وضع افتراض منهجى قائم على وجود علاقة محددة بين أهداف البحث والأسلوب المنهجى المتبع فى البحث، ويبرز هذا عند الاستخدام المنهجى البنائى الوظيفى، خاصة أن البعض قد خلط بين المعالجة الاجتماعية والثقافية، وهو الأمر الذى شجع بعض العلماء إلى ضرورة التأكيد على حتمية الاعتماد على وسائل وطرق أخرى فى المعالجة المنهجية، لتسمح بدراسة الظواهر الاجتماعية فى إطار المعايير المنهجية المقبولة وفقاً لطبيعة الظاهرة، دون إدخالات فلسفية أو أيديولوجية يترتب عليها الخروج بنتائج

مبهمة عن الدراسة، أو أن تكون النتائج أكثر من مجرد كونها رؤى أدبية، كما يرجع ذلك إلى التبسيط المفرط فى الاستخدام المنهجى، ونذكر على سبيل المثال الوصف والاستخدام الإحصائى فى البحث السوسيولوجى الذى يبتعد عنه الكثيرون بإهمالهم الإحصاء كأن الاهتمام بالإحصاء سوف يبعد بالبحث الاجتماعى عن أهدافه، وغالباً ما يكون هذا فيه الكثير من المبالغة والتعسف وسوء التناول المنهجى السليم، وكل هذا يمثل فى حد ذاته معطيات سلبية للبحث السوسيولوجى منهجيا ونظرياً[1].

إن تلك القضايا المنهجية فى حاجة إلى المزيد من المناقشة لوضع إجابات أكثر قبولاً، على الرغم من أن تلك الإجابات فى العادة تكون صعبة فى البحث الاجتماعى لوجود ذلك التباين الواضح فى المفاهيم والنظريات للكثير من القضايا فى حين أن ذلك التباين قد يكون هاما ومفيدا فى بناء نظرية لها القدرة على التطبيق وعلى تحقيق نجاحات أكثر، وهذا ما يمكن قياسه من خلال التعرف على مدى كفاءة تلك المفاهيم فى إطار البناء النظرى فى تفسير الظاهرة الاجتماعية من خلال تفسير السلوك الإنسانى وظواهره الاجتماعية، وهذا يعنى أن الضعف الذى تبنى عليه النظرية يتبعه بالتالى ضعف أكثر تأثيراً فى المنهج، وهذا فى حد ذاته يتطلب إيجاد معالجات منهجية لتلك القضايا ووضع الحلول لها. ولهذا نتساءل دون حرج فى هذه المناقشة نحو الإدعاء بوجود تقصير فى الاستخدام المنهجى، أم أن بعض مناهج البحث أصبحت تفتقر إلى معايير مقبولة بعد التطورات الحادثة على

(١) سليمان خلف، الأنثروبولوجيا السياسية، دراسة نقدية للاتجاهات والمناهج فى الأنثروبولوجيا السياسية، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثانية عشرة، الرسالة التاسعة والسبعون، ١٩٩٢.

العلوم الإنسانية، أم من أجل اقتفاء أسلوب منهجى مختلف أكثر تطوراً !

ونعرض هنا للاتجاه البنائى الوظيفى باعتباره النموذج الأمثل فى البحث الأنثروبولوجى، إلا أنه فى الوقت نفسه نجده قد قدم تحليلات غابت عنها الدقة، مما أصبحت معه النتائج عديمة الفائدة الأمر الذى دفع البعض فى البحث عن رؤى نظرية ومنهجية جديدة، خاصة أن هذا المنهج لم يستطع الالتزام بعملية الفصل فى التحليل والتفسير بين ما هو ثقافى واجتماعى فإنه مازالت عملية الفصل فى البحث الأنثروبولوجى قائمة على المفاهيم التقليدية لهما، باعتبار الجانب الثقافى قائماً على مفاهيم وتضمينات فكرية وإدراكية Ideational or Congnitive entities من حيث الاهتمام بمفاهيم الناس people's concepts ونماذجهم Standard وكذلك للاستجابات الأساسية فى التفاعل، وبالتالى عدم الاهتمام بالأحداث اليومية Events وأنماط الحياة اليومية وكذا الأنماط الإحصائية Statistica l patterns، وأما الجانب الأجتماعى أو ما يعرف بالأنثروبولوجيا الاجتماعية فلقد اتجهت اتجاها أثنولوجيا فى التحليل لتجنب عبء اللاعقلانية الوظيفية الكامنة، ولهذا نجد أن دراسات الدين والسحر والطقوس الشعائرية كانت قد سيطرت على البحث الأنثروبولوجى، كما كانت أيضا كفيلة بإبعاد الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن دراسة الأحداث الاجتماعية اليومية وكذا أشكالها الإحصائية، وهذا بدوره يوضح مدى حدوث الغموض فى الاستخدام المنهجى والنظرى نتيجة لعدم الفصل بين ما هو ثقافى وما هو اجتماعى، مع أن هذا الخلط قد ارتبط منذ نشأة علم الأنثروبولوجيا ذاته.

فمع بداية القرن التاسع عشر كان الاختيار بين ما هو ثقافى وما هو اجتماعى عادة ما يكون مجرداً من المدلول المعرفى، وفى بداية الثلاثينيات ساد الفكر البنائى الوظيفى لراد كليف براون باعتباره الثقافة هى تلك الأشكال الفكرية، كما كانت لرؤية سير جيمس فريزر على أن السحر والدين لا تحمل أى قدر من التشابه كالأحداث اليومية وهو الأمر الذى أثر كثيرا فى استخدام الكثيرين للثقافة مثل كلايد كلوكوهن وكروبير على غرار ما يسمى بالظاهرة الاجتماعية والثقافية فى علم لاجتماع الألمانى .

وأما عن تايلور فقد تأثر بدوره من Comte و Teodor waiz و Qustav klemm الذى وضح فى كتابه الثقافة البدائية، ومع ذلك نجد أنه قد أحجم عن استخدام المفاهيم والمصطلحات الفرنسية. إلا أنه بعد نشر كتابى هربرت سبنسر The study of sociology ومبادئ علم الاجتماع The principles of sociology نالت المصطلحات الفرنسية القبول والتناول عند علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين، مما كان له دوره فى الاهتمام بالجانب الاجتماعى. وأما عن الرؤية الثقافية فى البحث الأنثروبولوجى فقد كانت هى الباعث الرئيسى فى الاهتمام بالجانب الاجتماعى، فبالنظر إلى كتاب روبرت لوى Lowie المجتمع البدائى Primitive society نجد أن أفكاره وآراءه تواكب الأفكار المتداولة لمورجان فى كتابه المجتمع القديم Ancient society ، وإن كان الأخير له تميزه عن فكرة الثقافة البدائية التى تناولها تايلور فى كتابه الذى حمل نفس العنوان رغبة من مورجان فى الإشارة إلى الاهتمام بالجانب الاجتماعى «المجتمع» كبديل عن الثقافة الذى أبدى فيه مورجان اهتماماً كبيراً بالتنظيم الاجتماعى والبناء الاجتماعى

واعتراضه كذلك على التكنولوجيا والأيديولوجية ، بينما حاول بول رادين P. Radin السير على نفس الدرب، ولكن برؤية مختلفة فى ما يعنيه بالجانب الاجتماعى، حيث يرى ضرورة إغفال الجوانب الفيزيقية، والأيكولوجية واللغوية عند دراسة الجانب الاجتماعى. وعلى جانب آخر ذكر مالينوفسكى فى خطاب له بعث به إلى مدير مدرسة لندن للاقتصاديات London school of economics عام ١٩٢٣ بشأن موافقته كمحاضر فيها حيث اقترح فيه أن تكون محاضراته تحت عنوان «الأنثروبولوجيا الاجتماعية» على اعتبار أن مدرسة لندن تمثل مركزا لعلم الاجتماع ذات طابع إنجليزى تقليدى. ومن ذلك يتضح لنا على وجود الشيفونية المحلية أو الوطنية فى التوجيهات العلمية متمثلا فى نبذ المدرسة الإنجليزية للاتجاهات الثقافية لكونها مأخوذة من المصطلح الألمانى Kultur، التى كان ينظر إليها على أنها Fine shade ولهذا ظل الأنثروبولوجيون البريطانيون والمعاصرون يفضلون الاهتمام بدراسة الجوانب الاجتماعية من الحياة ويؤكد Godffry Lienhardt على أنه مازال الكثيرون من علماء المدرسة الإنجليزية يطلقون على علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين والمعروفين باهتمامهم الثقافى أنهم أنثروبولوجيون اجتماعيون أمثال فرانس بواس Boas وريموند فيرث وروث بندكت[1].

ومن ثم على أى أساس إذن تتكون النظرية البريطانية للأنثروبولوجيا الاجتماعية؟ فلقد اعتمدت تلك النظرية على التطور والنمو الكبير الذى حدث

(1) Kuper, Adam, 1996, Anthropology and Anthropologists. The modern British School. Routledge. England.
- Urry, James, 1993, Before social Anthropology. Essay on the history of British anthropology.

لعلم الاجتماع الفرنسى خاصة فى التفسيرات والتحليلات الدوركايمية التى استندت على أفكار كل من هربرت سبنسر خاصة ما يعرف بـ Super organic و Comte عن الحقائق أو الوقائع الاجتماعية Social facts للوحدات الأساسية للأحداث الثقافية الاجتماعية، ولهذا اعتمدت تلك النظرية البريطانية على نظرية المعرفة الدوركايمية للوقائع أو الأحداث الاجتماعية الحادثة الآن(١).

وهذ ما أوضحه راد كليف براون من أن تأثير دور كايم كان ضروريا لتطوير ونمو الاتجاه البنائى الوظيفى البريطانى British sturctural functionalism وهذا الدور لعبه أيضا Parson فى شيوع الاتجاه البنائى الوظيفى والاستعانة به فى الدراسة الثقافية فى الولايات المتحدة، ولذا لم يكن لرادكليف براون دور فى هذا، وكما أكد Parsons أيضا على أن الأنساق الاجتماعية تتكون من ثلاثة أبعاد أساسية هى البناء الاجتماعى والثقافة والأيكولوجيا كما كان له تأثيره على Kroeber الذى يرى أن الثقافة تتمثل فى تلك القيم Values بمعنى أن تلك القيم تمثل الثقافة التى ينظر إليها على أنها Motor Reactions أو القوى المحركة لردود الأفعال وكذلك السلوك المستحدث، ويتفق كل من Comte على أن كل من Parsons, Kroeber وسبنسر وماكس فيبر ودوركيم قد تحدثوا عن المجتمع على أساس أنه مجموعة من المعانى أو المفاهيم الضرورية التى لها بالضرورة نفس الشئ الذى يعنيه تايلور بالثقافة، ولذا فقد كان من الضرورى إيجاد تفسيرات أكثر وضوحاً لهذه المفاهيم الغامضة والكثيرة للثقافة والمجتمع،

---

(1) Ibid.

ولذا نرى ضرورة التناول المنهجى الثقافى فى حدود التفسيرات الخاصة للمفاهيم المستخدمة فى شقها الضيق عند الاستخدام المنهجى عن ما هو متبع لدى الكثيرين من علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين، مع ربط المفاهيم التى تم وضعها فى إطار أنماط القيم والأفكار أو فى إطار بعض المعاني الرمزية كعوامل تعمل على تشكيل الإنسان وسلوكه(١).

وعلي هذا الإساس فإن الاختيار المنهجى والنظرى بين ما هو اجتماعى وثقافى هو اختيار لأجل إيجاد معطيات ملائمة للواقع الاجتماعى وديناميكياته، وهذا الاجتهاد المنهجى يمثل أحد أهم مراحل البحث الأنثروبولوجى حساسية، من حيث الاستخدام المنهجى السليم دون الاعتماد على إجابات ذات طابع فلسفى أو علمى صرف تعتمد على أفكار ومعايير معقدة ومبهمة، وعلى هذا السياق ترتبط القضية المنهجية بالأسس النظرية المتبعة التى اعتمد عليها فى التحليل الأنثروبولوجى. ومع هذا نؤكد على أن كل من الجانبين الاجتماعى والثقافى كان لهما دورهما وتميزهما بما أفاد البحث الأنثروبولوجى فى مرحلة من مراحل تطوره، وهذا ما يبرز فى اهتمام البحث الأنثروبولوجى بإبراز مستويات التغير الثقافى والاجتماعى من خلال دراسة المجتمع البدوى كبناء اجتماعى (٢).

إن الاستخدام النظرى للبداوة فى العديد من الدراسات السابقة يتم معالجته بطريقة مزدوجة، فتارة فى إطار البحث الاجتماعى وتارة أخرى فى

(1) Harris, Marvin, 1980, History Ideological of the Separation of social and cultural Anthropology. In, Ross, Eric B. Bevond the Mylts of culture, Essys in cultural materialism Academic press N.Y.

(٢) محمد عبده محجوب، أنثروبولوجيا المجتمعات البدوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١.

الإطار الثقافي، وقد يبدو هذا مقبولا من الإطار المنهجي وذلك للعديد من الاعتبارات المذهبية التي صاغها العديد من علماء الأنثروبولوجيا، إلا أنه في حقيقة الأمر يمثل قضية منهجية هامة في البحث الأنثروبولوجي، خاصة أنه أصبح الآن وجود حاجة ملحة للتمييز بين ما هو اجتماعي وثقافي، نتيجة لوجود التداخل والخلط المستمر بين المفهومين، حتى إننا نجد في حالة اختيار أي منهما يكون في العادة مجرداً من المدلول المعرفي والفكري منهجياً ونظرياً، ولعل أقرب مثال في ذلك هو الاتجاه البنائي الوظيفي لرادكليف براون الذي مازال مسيطرا على الفكر الأنثروبولوجي بل على أغلب الدراسات والبحوث التي اعتمدت على المبدأ الوظيفي في تحليلاتها دون تمييز فخرجت النتائج بالكثير من المعاني الغامضة والخادعة لطبيعة الظاهرة، ونتيجة لذلك ذهب العديد من الدراسات إلى نتائج مؤداها ضرورة الاهتمام بعمليات التفاعل والتساند في العلاقات والبعد في التحليل عن العوامل السببية في الظاهرة وهذا دفع رالف لينتون Linton إلى محاولته في توضيح هذا بالتفريق بين الشكل والمعنى في الاستخدام الوظيفي للثقافة فشكل الثقافة «البدوية» ما هو يمكن إدراكه وفهمه عن طريق الحواس عامة وما يمكن وصفه بشكل موضوعي عن الحياة البدوية، والمعنى هو مجموعة الأشياء أو الذاتية التي تتضمنها هذه السمة التي تتميز بها الثقافة الضمنية، وأما عن استخدامها فهو علاقتها بالأشياء خارج المجتمع والثقافة، وأما وظيفتها فهي علاقتها داخل المجتمع والثقافة (١).

فالبداوة في ضوء ما يراه رالف لينتون من ناحية الشكل هي عبارة

---

(1) Kroeber. A. L., 1963, Anthropology, Culture and the world, Partterns and Processes. Hercaules Brace Inc., N.Y.

عن مجموعة من الصفات الأيكولوجية ممثلة فى الكثبان الرملية وسهول ومرتفعات وندرة المياه فى الحياة الصحراوية وكلها أشياء محسوسة من خلال صعوبة الحياة فى مثل تلك الظروف، وهذا المظهر الحسى فى المعنى الثقافى يضفى عليها سمة البداوة كسمة "ثقافة البدوية. والحقيقة أن البداوة لانجدها فقط فى المناطق الصحراوية، ولكن فى مناطق الغابات والمناطق الجليدية وغيرها من المناطق التى تخضع تماما للظروف الأيكولوجية، ومن ثم فأنشطة الرعى أو الجمع والالتقاط أو الصيد هى أنشطة لا تهدف قط إلى الاستخدام الأمثل لطبيعة الحياة السائدة لكل منطقة من تلك المناطق بقدر أن أنساق القيم هى تلك القوة المحركة لأداء تلك الوظائف، ولهذا فإنه من الناحية الوظيفية هنا لا تعنى توفير وسائل معينة لأفراد تلك الجماعات أو المجتمعات كاستجابة لنسق القيم، وعلى هذا فإننا فى هذا البحث نركز على المعنى الذاتى للثقافة البدوية الذى لا شك فى أنه يختلف من مجتمع لآخر على نحو ما عرضنا.

ومن ثم فإن مسألة ما يعرف بالتكيفات الثقافية فى البحث الأنثروبولوجى لابد لها أن توضع داخل إطار نسق القيم، وخلاف ذلك لا يمكن لأى إنسان فى أية ثقافة أن يقوم بنشاط الرعى فى صحراء جرداء، أو بالأمل فى البحث عن موارد معيشية من خلال الجمع والالتقاط أو حتى الصيد خوفا من الأخطار التى يلاقيها»، ولكن نسق القيم هو الذى عزز من تلك الأفعال الاجتماعية، الذى جعل لها دورها المزدوج، بينما نجد أن الرؤية الوظيفية لها جانب واحد يتمثل فى القيام بالوظيفة ذاتها المحصورة داخل نطاق النشاط سواء أكان الرعى أو الصيد ... الخ، بينما نجد نسق القيم

يحوى تلك الأفعال المتنوعة والمختلفة فى كافة نواحي الحياة البدوية الاجتماعية، والسياسية والضبط الاجتماعى التى تمثل استجابات ذات علاقات سببية وليست وظيفية، فلم يعد الرعى فى الصحراء أو حتى الصيد فى المناطق الجليدية يمثل استجابات منتظمة للحاجة البشرية الذاتية لاعتمادها على متغيرات يصعب الاعتماد عليها والتحكم فيها، ويدل على ذلك أنه على الرغم من الاتصال الثقافى وانفتاح المجتمع البدوى على الثقافات الأخرى، إلا أن الرعى مازال قائما كما أن الكثير من الكتابات تشير إلى جماعات اللابونيين فى الدول الإسكندنافية مازالوا يمارسون الحياة البدوية على الرغم من التقدم التكنولوجى فى تلك المناطق، فممارسة الحياة البدوية ليست لحاجة مستمرة وملحة وأساسية بقدر أنها تلك الثقافة(١*).

وهذا أيضا يمكن التأكيد عليه من خلال النسق السياسى بتحليل القضاء العرفى فى المجتمع البدوى الذى يتصف بالقبول والاختيار كجزء من الأعراف والتقاليد حيث إن تنفيذ قواعد الضبط الاجتماعى صادر عن رضا واختيار وفق مبادئ تتفق مع تلك القواعد والمبادئ الأخلاقية لاعتبارات تتعلق بنسق القيم ومبادئ الأخلاق التى هى القاعدة الأساسية لروح القانون العرفى(٢). بينما وظيفة القانون الوضعى هى تنظيم السلوك الإنسانى من

(1) Harris, Marvin, 1980. op.cit.

* أنظر إلى دراسات كل من :

محمد عبده محجوب ، الكويت والهجرة، دراسة للآثار الديموجرافية للبترول فى المجتمع العربى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٧.

فاروق مصطفى إسماعيل، التغير الاجتماعى الصحراوى : دراسة فى منطقة مريوط، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. عاطف غيث، ١٩٧١.

عليه حسن حسين ، التغير الاجتماعى للوادى الجديد : دراسة أنثروبولوجية للواحات الخارجة، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد، ١٩٧١.

(٢) القضاء العرفى فى شمال سيناء، لجنة جمع التراث بمحافظة شمال سيناء ١٩٩١.

خلال توقيع الجزاء وجبر الخارجين عن نظم المجتمع الالتزام بها ولو باستخدام القوة عند الضرورة عند تطبيق الجزاءات وذلك عن طريق سلطة عليا تستخدم القوة المادية، وليصبح الأمر يتخذ صفة الإلزام لتنظيم الحياة والسلوك داخل المجتمع، ولكن فى القضاء العرفى داخل المجتمع البدوى فالالتجاء إلى الجزاء هو من الأصول الاستثنائية، لأنه فى الغالب ما يكون الاحترام والطاعة عن رضى وقبول تامين، لأن القاعدة القانونية تم قبولها برضا واختيار كما أنها تتفق مع قيم ومبادئ الدين التى هى فى حد ذاتها تمثل القاعدة القانونية التى يمكن لها أن توفر الحماية والاستقرار لأفراد المجتمع البدوى(*). ولذا يمكن التأكيد بالادعاء بأن القضاء العرفى أكثر تطورا وتقدما من نظيره الوضعى، ويكفى القول بأنه يوجد فى بعض الثقافات أن يلجأ الفرد إلى أخذ حقه بنفسه وهذا ما جعل الحياة الاجتماعية في هذه الثقافات غير مستقرة وأقرب مثال على ذلك ما يعرف بظاهرة الثأر الذى يمثل مخالفة لنظم المجتمع باعتباره ليس له أسس ثقافية بقدر كونه ممارسة تعتمد على القوة الذاتية.

ومن ثم فالتحليل الثقافى يأخذ برؤية أن القضاء العرفى هو الطريق الذي توحى به الفطرة ومنه أنشأت المجتمعات الأولى القاعدة القانونية، ولهذا فالقضاء العرفى أبعد كثيراً من أن يكون له دور وظيفى كنسق للضبط

(*) أنظر إلى دراسات :

محمد عبده محجوب ، نظم الحكم فى المجتمعات القبلية : دراسة أنثروبولوجية مقارنة فى بعض المجتمعات الأفريقية، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد ١٩٦٧. ٠ -

محمد عبده محجوب ، موسوعة القانون العرفى لقبائل أولاد على، العوايد المتبعة والجارى الحكم بموجبها والقواعد الشرعية فى تحديد قيمة الدية والنظارة فى الصحراء الغربية المصرية، ١٩٩٣.

الاجتماعى على نحو القانون الوضعى، بقدر أنه يمثل حاجة ثقافية أو كسلوك ثقافى لمظاهر التجربة من خلال ممارستها أنها تعكس طبيعة تركيب السلوك الثقافى داخل المجتمع البدوى بالرجوع إلى هذا التركيب الثقافى يمكن اكتشاف نسق القيم من خلال سلسلة الأنشطة الثقافية المختلفة المتميزة لأفراد المجتمع البدوى وليس فقط من خلال تحليل القانون العرفى. وهذا أيضا ما ينطبق على غيرها من العناصر الثقافية كاللغة حيث نجد أن البحث اللغوى الأنثروبولوجى قد سار على هدى مجموعة من المبادئ التقليدية المعروفة، ولذا فهناك ضرورة إلى تحليل منهجى فى إطار الفهم السليم للبداوة من خلال اكتشاف تلك المفاهيم الثقافية التى عادة ما تكون غير لغوية بتحليل محتوياتها التي تبدو لنا غامضة فى كافة مستويات التحليل الأنثروبولوجى، ومن ثم فنحن فى حاجة إلى محاولة التعرف على تلك الجوانب غير اللغوية لنستنبط منها دلالات لغوية، وهذا سوف يؤدى إلى دراستها دراسة ترابطية فى إطار التحليل الثقافى لمصطلح البداوية.

ولعل البحث فى الثقافة كحقيقة مطلقة هى عملية بحثية تفوق طاقة وقدرة الباحث الأنثروبولوجى، نظراً لأن الثقافة هى ميدان واسع مترامى الأطراف ولكونها مجموعة تجارب حياتية استمدت عبر التاريخ مما أضفى عليها صفة التراث الاجتماعى، ولهذا فإن تفسير الثقافة بشكل موضوعى يمثل طريقة صعبة، حيث إن الثقافة فى طبيعتها لاتبدو لنا كظاهرة واضحة الإدراك خاصة التعريفات التقليدية لها التى تحمل الكثير من الأفكار والمعانى الفضفاضة، بل بكثير عن المعنى الشائع والمألوف. ويبدو هذا فى المشكلات الحالية للثقافة، خاصة ما يعرف اليوم بالانقسام الثقافى الحادث

فى العديد من بلدان العالم، التى أصبحت بدورها تعكس قضايا علمية جديدة ليست ثقافية على نحو ما هو متعارف عليه، الأمر الذى يتطلب وجود رؤى جديدة تفرض ذاتها على البحث الأنثروبولوجى نظريا ومنهجياً.

ومن ثم فإن قالب النظرية الثقافية لابد له أن يسير مع أحداث التاريخ وليس ضده على اعتبار أن جوهر الثقافة يكمن فى التاريخ ولايمكن تصور التاريخ بلا ثقافة والشعب الذى يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه، ولهذا فهى تعكس بصورة دقيقة وسليمة قدرات وإمكانيات المجتمع، ولا يوجد مجتمع أو حتى جماعة يمكن لها أن تعيش داخل ذاتية ثقافية خاصة بها، فهناك الآلية والدينامية فى التفاعل والاشتراك فى ثقافة عامة «الثقافة الأم»، وهذا يمكن إدراكه فى نسيج العلاقات الاجتماعية للجماعة، وإن كان تحليل ذلك بشكل موضوعى يمثل صعوبة بالغة فى إدراكه بتلقائية. وفى هذه النقطة يجب أن نؤكد على أن الدراسة الأنثروبولوجية قد ظلت وحتى الآن مقيدة بموضوع الذاتية الثقافية نظريا ومنهجياً، فعلى سبيل المثال مازالت تدرس البداوة وقضاياها داخل إطار الانتماء القبلى والعرقى الأمر الذى جعل مستوى التحليل الأنثروبولوجى لا يتعدى سوى دراسة البناء القبلى المغلق، مما ابتعد أيضا بمستوى التحليل عن معرفة العلاقات السببية والمتداخلة للحياة الاجتماعية البدوية التى هى فى حقيقتها تقوم على التفاعل المستمر مع المعطيات المحيطة بها، الذى يظهر فى صور شتى، وفى تنوع الأنشطة الحياتية المختلفة.

وما زال أيضا الاتجاه السائد فى البحث الأنثروبولوجى هو الاعتماد

على أساليب منهجية معينة واعتبارها النموذج الأمثل، ففى دراسة البداوة على سبيل المثال نجد الابتعاد عن الوصف- حيث لاقت البحوث الوصفية الكثير من النقد، بل ذهب الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا بادعائهم بأن دراساتهم تبتعد عن الوصف خاصة الوصف البسيط - رغم أن الوصف يمثل الخطوة الأولى الأساسية فى البحث الأنثروبولوجى على اعتبار الوصف يمثل معرفة مطلوبة(*). إلا أن هذا الوصف فى حاجة إلى صياغة منهجية تتناسب مع الواقع الاجتماعى لأجل الكشف عن سبل الحياة المتاحة داخل المجتمع البدوى، ولتحقيق ذلك يتطلب من الباحث فى مثل تلك البحوث على وضع عدد كاف من الفروض والمفاهيم المسبقة حتى يمكن إيجاد تفسير سليم للظاهرة، أو بتعبير آخر أن الوصف المطلوب فى دراسة الظاهرة أنثروبولوجيا فى حاجة إلى دليل تجريبى أكثر من الاعتماد عليه فى المقارنة التى عادة ما تكون غير عادلة ومنصفة، على نحو ما ذهب إليه الكثيرون فى دراسة الظواهر الاجتماعية.

والوصف هنا فى دراسة المجتمع البدوى يستند إلى وصف حقائق ثقافية عن الحياة البدوية دون الاعتماد على أدبيات تقليدية تصور الحياة البدوية باعتمادها على الرعى كأحد النشاطات الحياتية المتاحة التى فرضتها الظروف الأيكولوجية بما يتواءم مع طبيعة الحياة الصحراوية، مما دفع العديد من الدراسات إلى الافتراض بأن الرعى يمثل أداة معيشية تتناسب تناسباً متوازيا مع ما تسمح به الظروف الأيكولوجية السائدة، أو بتعبير آخر

(*) أنظر إلى دراسة : أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى مصر، البحث الأول، شمال سيناء، دراسة إثنوجرافية للنظم والأنساق الاجتماعى، المركز القومى للبحث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٩١.

وحدها تحدد وتشكل الممارسات السلوكية، وهذا يعد قولا غير ذى معنى، ولذا من الضرورى التأكيد على أن المكونات أو العناصر الثقافية لها نفس ذلك التأثير. وعلى هذا فالرعى أو الأنشطة الرعوية أو غيرها من الأنشطة الأخرى كالزراعة والصيد هى أنشطة قامت نتيجة أيديولوجيا ثقافية، كما أنها فى نفس الوقت أنشطة تمثل شكل من أشكال الاستجابة للظروف المعيشية المحيطة المرتبطة بنسق القيم(١).

وإذا كانت الرؤية التحليلية تنطلق من المفهوم النظرى للبداوة نجد أن الشروق الثقافية قد انبثقت بطريقة أو بأخرى من الظروف الأيكولوجية، وهذا جعل الرعى الوسيلة الإساسية بل يمثل النموذج الأمثل داخل إطار نسق القيم لأن خلاف ذلك المعيار القيمى يصبح مستوى التحليل سطحى، على اعتبار أن القياس الذى نستعين به في التحليل والتفسير يتسق مع نسق القيم كمعيار للقياس كواقع فعلى يمكن الاعتماد عليه أو بتعبير آخر أن نسق القيم يمثل ذلك المبدأ الذى يعبر عن دور الظاهرة فى الحياة الاجتماعية داخل المجتمع البدوى.

إن وصف التحولات التى حدثت فى المجتمع البدوى يجب أن يعتمد فى دراستها على فروض ثقافية وليست اجتماعية على اعتبار أن الثقافة هى المحرك أو القوة التى دفعت إلى التغيرات الاجتماعية الحادثة الآن فى المجتمع البدوى، ولو كان مرتبط بنسق القيم الذى سمح بذلك التغير – والوصف هنا غير معنى به استنباط التباين الاجتماعى والثقافى، ولكن الذى نعنى به فى البحث هو تحديد السمات والخصائص التى تتضمنها الثقافة

(1) Galaty, John G., 1981, Introduction Nomadic Pastoralists social change process and erspectives, E. J. Brill Ieiden. Netherlands.

البدوية، وهذا عكس ما هو متبع فى البحث الأنثروبولوجى التقليدى الذى يعتمد على منظورين منهجيين فى دراسة البداوة، الأول يرتكز على مسألة الاهتمام الثقافى والاجتماعى، وأما المنظور الثانى فيعتمد على ما يتصف به المجتمع البدوى بأنه مجتمع تقليدى غير متغير بالطريقة التى تحدث فى باقى الثقافات الأخرى – وأنه من خلال دراسة نتائج العديد من الدراسات السابقة تأتى عملية الوصف منهجيا بأفكار غير موضوعية وفقا مع طبيعة ما حدث ويحدث فى المجتمع البدوى بل فى غيرها من المجتمعات الأخرى التى تعيش حالة من التغير والتبدل الدائم والمستمر، ولذا فالفروض التى وضعت فى إطار تلك الدراسات الأنثروبولوجية المعتادة قد جاءت غير متسقة بالواقع الاجتماعى والثقافى، ولهذا يمكن القول فى هذا السياق إن أية دراسة سارت على النحو السابق للمنظورين السابقين قد اعتمدت على الوصف البسيط ذى الرؤية النظرية الأكثر تبسيطا، وهذا ما يرفضه البحث الأنثروبولوجي فهى دراسات لم يستفد منها كثيرا بما أفرزته الدراسات الحقلية، أو أنها قد ألقت بنتائج الدراسة الحقلية جانبا، ولهذا فهى دراسات وُصفية لم تستند لدلالات واقعية. ولقد كان من نتائج مثل هذه الدراسات أنها قد ذهبت إلى وصف الحياة البدوية بالاستاتيكية نتيجة الاعتماد على متغير واحد فى الدراسة كمنظور أحادى فى تماسك أنساق وأنظمة المجتمع نتيجة لافتراض مؤداه أنه مجتمع مغلق واعتبار البداوة فى حد ذاتها نسق متميز فى انغلاقه.

ولهذا يمكن القول أن البحث الاجتماعى اعتمد كثيرا على أطر ومصطلحات محددة ومتكررة أضفت سمة الإستاتيكية على البحث

الاجتماعى وكذلك فى التصنيف ووضع المعايير، وهو الأمر الذى دفع البعض إلى معالجة تلك القضايا فى إطار الدراسة الاجتماعية التى هى فى حقيقتها فى حاجة إلى التجديد حتى يصبح المنهج المتبع فى دراسة ما صالحا للتطبيق، وهذا فى حد ذاته ليس عملا سهلا خاصة عند وضع معايير منهجية مقبولة فى ضوء القواعد السوسيولوجية المتعارف عليها. فرؤية البداوة أو غيرها من الأنماط الثقافية على أنها مجتمعات متخلفة أو مغلقة فيه الكثير من التعسف، ولذا فإن المقارنة على هذا النحو مع الثقافات الأخرى لايمكن أن يكون مقبولا خاصة عند مقارنتها فى ضوء الوسائل التكنولوجية المتاحة والأساليب المعيشية البسيطة مقارنة بالأساليب العصرية من حيث أن أى من أدوات الحياة المعيشية البدوية المستخدمة فى الحياة اليومية لا تقل فى تقدمها عن مثيلتها فى الثقافات الأخرى، وهذا يدلل على أن نسق المعايير لا يقبل المقارنة والقياس على هذا النحو المستخدم فى بعض البحوث الاجتماعية، وهو ما نعنى به تعديل المنظور المقارن كمنظور تقليدى اتجه إلى ما يعرف بالأشكال القديمة والحديثة فى البحث الأنثروبولوجى.

وهذا أيضا ما تجده على نحو اهتمام البحث الأنثروبولوجى بموضوع العادات والتقاليد إلى أبعد حد ممكن، وهذا يتطلب أيضا إعادة النظر لأى دراسة تتعلق بذات الموضوع لأجل ترسيخ مفاهيم موضوعية تبتعد عن المفاهيم التقليدية السائدة فى البحوث الأنثروبولوجية، فإذا كانت أنساق القيم هى ذلك البناء النظرى والمنهجى إلا أن ذلك لا يمكن أن يكون مدخلا منهجياً لتقسيمات علمية تعسفية لموضوع المجتمع، رغم أنه يمكن القول أن مثل تلك التقسيمات كانت تمثل محاولات جادة لإيجاد رؤى سليمة مع

الاعتراف بأن تلك الرؤى كانت إلى حد ما مفيدة للبحث الأنثروبولوجى فى إيجاد تحليلات تتسم بالمرونة لإبراز النظم السائدة فى المجتمع، إلا أنها لا يمكن أن تكون ذلك النموذج الأمثل غير كونها تمثل صوراً أو أشكالاً لأفكار نظرية، ولذا نجد أن الاهتمام بموضوع العادات والتقاليد كمدخل فى فهم المجتمع أوقع العديد من العلماء فى دراسة تلك المجتمعات من مدخل واحد وهو أنساق القرابة لأى موضوع بحثى وما زالت تلك الرؤى مسيطرة على البحث الأنثروبولوجى جعلت منها نظرية أساسية فى فهم البناء الاجتماعى والثقافى(*)، إلا أن الجانب الإيجابى فى ذلك أن أغلب تلك الدراسات أكدت على قوة البناء الثقافى ومع هذا ما زال هناك العديد من البناءات فى حاجة لاكتشاف رؤى منهجية جديدة تتناسب مع الواقع الاجتماعى، كما أن الاعتماد على قوة البناء الثقافى لا يمكن أن تكون دليلا بالادعاء على أن مثل هذه المجتمعات تمثل نموذجًا فى البناء له شكل خاص، لأن قوة البناء الثقافى تمثل نوعا من الآلية والديناميكية ضمن الثقافة العالمية(١).

ولذا فإن الادعاء بمفاهيم وتفسيرات للبداوة على أنها نمط من أنماط الحياة التقليدية يحتاج إلى وقفة منهجية دقيقة، فالتقليدية هنا ليست بالمعنى المتخلف أو البدائية أو أنها تشير إلى قياس لمستوى تكنولوجى أو ثقافى معين، بقدر أنها تعنى من وجهة نظرنا بأنها نسق قيم تدل على البقاء والاستمرار، كما أنها فى نفس الوقت تأكيد على أن أداء بعض الأنشطة

(*) أنظر إلى دراسة : فاروق مصطفى إسماعيل، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات اللاتينية فى منطقة غرب مريوط، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد، ١٩٧٥.

(1) Gingrich, André 1992. Concepts and confusions, Understanding Middle eastern societies. in current Anthropology.vol. 33 N 1. 1992.

داخل الحياة البدوية يجب أن يتم بنفس الطريقة، وهذا لا يعنى بالتقليدية هنا أيضا الإشارة إلى الحياة الرعوية فى المجتمع البدوى حيث لا يجب أن يفسر الرعى بأنه الطريقة الطبيعية التى يجب أن يمارسها الأفراد كون أن ذلك يمثل تلك السمات الثقافية ومركز الدفع لأنماط العلاقات الاجتماعية، وليس على النحو الذى نتصوره عن المجتمع البدوى الذى يشكل محيطاً اجتماعياً معقداً ومغلقاً، الأمر الذى ساعد فى التأكيد على تلك المغالطة العلمية فى القول بأن البداوة هى تلك الحياة البسيطة التى صورها البعض على أنها النموذج الأمثل لتلك المجتمعات. ولذا يجب أن ننظر إلى مصطلح البداوة على أنه طريقة للنظر إلى الأشياء وتحليلها فى إطار كونها نسق قيم تنبثق من الثقافة وليس من ديناميات التكيف الأيكولوجى.

ولهذا من الضرورى أن نستبعد بعضاً من الأفكار والمفاهيم المتعلقة بالتقليدية التى كانت أمراً مسلما كرؤى منهجية ونظرية، ومع هذا فإن تحليل مصطلح البداوة يمكن تحليله إلى عدد من المعايير:

١ – **المعيار الأول** : الانتماء العام كصفة أساسية .

٢ – **المعيار الثاني** : هو المعيار الذاتى من حيث الإنتاج الذاتى أو التسيير الذاتى، وهذا الإنتاج الذاتى يمثل قيمة اقتصادية وثقافية تتجه نحو الموارد الطبيعية المتاحة(*).

(*) انظر إلى دراسة: عبد الله عبد الغنى غانم ، التبادل وعمليات الاستثمار والادخار فى المجتمع التقليدى والحضرى، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد، ١٩٧١.

٣- المعيار الثالث : سلطة ذاتية مطلقة.

٤- المعيار الرابع : تعدد محاولات الأنشطة وسطحيتها، أو ما يسميه Cole تحت خط الإنتـــاج pluri-Economic أو مـــا يراه Eph'ol "complex Economic" الذى يمثل نظاماً اجتماعياً ذا أيديولوجية جماعية فى ضوء نسق القيم الذى جعل منها وحدة اجتماعية مستقلة اقتصاديا(١).

وعلى هذا نجد أن معالجة البداوة تتطلب إيجاد مجموعة من التصورات المنهجية والنظرية حتى يمكن لها معالجة طبيعة التغيرات الحادثة فى المجتمع البدوى، خاصة تطور صورة القرية البدوية، الأمر الذى يتطلب من التحليل الأنثروبولوجى إيجاد معايير التطور التى يمكن التنبؤ بها والتى كانت السبب فى حدوث تطور التجمعات البدوية إلى مستوى القرية ذى النمو الحضرى، مع هذا يجب الإشارة إلى أن طبيعة نشأة القرية فى المجتمع البدوى قد جاءت لتواكب طبيعة المجتمع البدوى وثقافته، ويمكن لنا فى هذا السياق أن نسجل الملاحظات التالية :-

١- فمن ناحية المكان نجد أن القرية البدوية قد تكونت وفق نسق القيم من حيث الارتباط بالأرض فى حدود الحيازات المتفق عليها، إلا أن العلاقات الاجتماعية خرجت عن حدود تلك الحيازات لتواكب تطور التجمعات البدوية، ولذا فالتحليل الأنثروبولوجى لابد له أن يوضح بجلاء تلك السمات الثقافية وأساليب المعايشة التى تغيرت نتيجة التغيرات التى طرأت على المجتمع،

(1) Marx. Emanuel. 1984, Economic change among pastoral Nomads in middle East, in Marx,E. and Shmueli, A. (eds) The changing Bedouin, Tranaction inc., N. J.

وعلى هذا فإن تلك التفسيرات تبدو قيمتها فى ضوء النظرية الثقافية، التى يمكن لها أن تفسر وتحدد السمات الثقافية التى كان لها دورها فى التغيرات التى حدثت فى الحياة البدوية ويصل بالتفسيرات إلى استنتاجات أكثر ملائمة تتفق مع النظرية الثقافية لما تعكسه من صور حقيقية لقدرات وإمكانيات المجتمع البدوى، وكذا لقدرات ودوافع الناس وكلها عوامل ساعدت على تكوين ثقافة المجتمع ووضعت الأطر الملائمة لنسق القيم السائد فى المجتمع البدوى(*).

٢- أن انحسار الرعى لا يقابله سقوط شرط البداوة، كما أن اشتغال الإنسان البدوى بالزراعة غير المستقرة، أو حتى المستقرة لا يضفى سمة الطابع الريفى على نمط الحياة البدوية فالقرية البدوية لها خصائصها وإيقاعها الخاص بها وهو ليس إيقاع العمل الرتيب أو المنتظم على نحو ما هو سائد فى القرية الريفية، وإنما هو إيقاع منقطع مرتبط بما تسمح به الظروف الأيكولوجية، وبالتالى يمثل الجانب الأيكولوجى شرط البداوة. وفى هذا السياق نعرض مثالا لجماعات اللابونيين Lapps القاطنين للأقاليم الشمالية فى إسكندنافيا وفنلندا والسويد والنرويج الذى يرتكز نشاطهم الاقتصادى على رعى الرنة المستأنس فى رحلات يتجاوزون فيها حدود الدول الإسكندنافية حسب الظروف المناخية المتاحة من حرارة ودفء، كما أن لابينو الساحل الأسكندنافى على الرغم من أنهم أول من استأنسوا حيوان الرنة، إلا أنهم قد تركوا رعى الرنة، ومع هذا فهم يعيشون حياة مستقرة بلا

(*) انظر إلى دراسة: فوزى رضوان العربى، نظام وحيازة الأرض وأثره فى النظم الاجتماعية التقليدية : دراسة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية رسالة دكتوراة مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد ١٩٧٩.

تنقل ولكنها بدوية محضة، ولهذا فالظروف الأيكولوجية هى أهم معايير البداوة، ولهذا لا يصلح أن يكون التجوال والترحال والاشتغال بالرعى أو الصيد أو الجمع أو القنص وحدهما معيارا للبداوة.

٣- يمكن لنا أن نطلق على الثقافة البدوية بأنها ثقافة بلا زمن، فمن واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية نجد أنها ثقافة لديها القدرة على الاستمرار فى الزمن دون وجود ضرورة فى التغيير باعتبار أن لها القدرة على إيجاد الأسلوب المعيشى القادر على استيفاء متطلبات الحياة اليومية، فقد يبدو للباحث الأنثروبولوجى أن التجوال والترحال هو أحد أهم شروط البداوة، ولكن فى ضوء نسق القيم البدوية، نجد أنها ضرورة ثقافية تعود عليها الإنسان الذى يعيش فى تلك الثقافة سواء فى المجتمعات الصحراوية أو فى المناطق القطبية الشمالية أو غيرها من المجتمعات الشبيهة بها فى أن يعيش حياة فيها حرية الترحال والتنقل (الحرية كمعيار قيمى) الذى يمثل بالنسبة له كذاتية ثقافية أو كنسق للقيم الذى مازال له دوره المؤثر فى حياة تلك المجتمعات سواء الصحراوية أو القطبية الشمالية، وحتى لدى جماعات اللابونيين التى تعيش فى المناطق الاسكندنافية المتقدمة رغم ما بها من ازدهار مطرد فى الحياة الاقتصادية، وهذا يؤكد على أن مسألة الاحتياجات الثقافية تمثل حياة مصيرية للإنسان رغم حركة الزمن التى تتطلب التغير ولهذا ستظل الثقافة البدوية فى تلك المجتمعات شاهدا لتراث يعبر عن قيم وسمات نحن أحوج إليها اليوم باعتبارها أحد عناصر الثقافة القومية. ولهذا يجب الاهتمام بالمفهوم الذاتى «لمصطلح البداوة» على نحو ما ذهب إليه ماكس فيبر Weber بإن الفعل الاجتماعى social action يمثل نتاجا

للمعنى الذاتى سواء أكان هذا المعنى واضحا أو كامنا (١).

إذا كانت الرؤية الأنثروبولوجية التحليلية للرعى ترى على أنه نشاط يمثل رد فعل طبيعى تجاه تلك الظروف الأيكولوجية مدعما بالأيديولوجيا الثقافية ونسق القيم، فإن ذلك من شأنه أن نجد فى العديد من المجتمعات الأخرى التباين فى اختلاف وسائل وأدوات المعايشة وفقا لنمط الحياة الطبيعية كالرعى فى المجتمعات الصحراوية وحياة الجمع والالتقاط والقنص والصيد فى المناطق القطبية الشمالية وهى أنشطة تتسم بالبداوة، لذلك نجد هناك ضرورة فى تباين الاستخدام المنهجى الأنثروبولوجى لمصطلح البداوة باعتبار أن الثقافة هى ذلك العامل المتغير بينما الظروف الأيكولوجية هى ذلك العامل الثابت، ومع هذا قد تبدو الملاحظة السوسيولوجية فى دراسة مثل تلك الأنماط لايمكن الاعتماد عليها باعتبارها الطريقة المثلى منهجيا لوجود مسلمات راسخة لدى الباحث الأنثروبولوجى باعتبار الرعى أو الحياة الرعوية هى الأسلوب المعيشى المناسب للحياة الصحراوية، وهذا لاشك يجعل الباحث يبعد بتحليلاته عن اكتشاف وسائل أخرى داخل الحياة البدوية. ولذا يجب البحث فى استنباط واكتشاف ماهية الرعى داخل الحياة البدوية؟ ففى الحياة الصحراوية لاشك فى أن الرعى كمهنة أو كنشاط يتميز بشئ مختلف تماما عن سائر الأنشطة الأخرى السائدة فى المجتمع البدوى من حيث أن الرؤية المنهجية للرعى – رغم الفردية الواضحة للملاحظة – ترسم صورة العمل

---

(1) Dirk. Käsler. 1994. Max weber : The Living classic " Sociology in Germany". Development Institutionalization - Theoretical Disputes. in Soziologie. Journal of the Deutsche Gesellschaft für soziologie verlage leske + Budrich. opladen. leverkusen No 3. 1994.

(*) أنظر إلى دراسات .

المشترك ومرعاة الصالح العام للعائلة والقبيلة معا، كما نجده قائما وفقا للنسق العقائدى لارتباطه بدوافع ومضامين دينية لما يمثله من مكانة اجتماعية ودينية ومع هذا لا يمكن الافتراض بأن الرعى فى المجتمع البدوى يمثل مهنة فى إطار مفهوم العمل من الناحية الاجتماعية نظرا لعدم وجود سقف معين للإنتاج والربح منه كمهنة شأن أى مهنة أخرى لعدم وجود دوافع الإنتاج، ولكن يمكن لنا الادعاء افتراضيا بأنها مهنة ذات دوافع ثقافية ويدلل على ذلك من خلال الآتى :

أ- أن العمل بالرعى داخل المجتمع البدوى يكون شكل مجموعات صغيرة أو ضيقة تقوم على التعاون العائلى.

ب- الرؤية إلى القطيع «الثروة الحيوانية» على أنه رأس مال ذو وجهة اجتماعية لأجل استحواذ النفوذ والسلطة داخل المجتمع، وليس لاهتمامات اقتصادية. وعلى هذا فالرعى يدخل ضمن نسق القيم وليس النسق الاجتماعى أو الاقتصادى، ومع هذا يمكن القول بأن أنساق القيم داخل المجتمع البدوى استطاعت إيجاد حوافز جديدة نحو نشاطات إيجابية رغم عدم ارتباطها بالإنتاج، ولذا يمكن استغلال هذا الجانب القيمى لدفع تلك الأنشطة نحو إيجابية أكثر تفيد المجتمع والمجتمع المحلى.

ومن ثم ماذا نقصد بمفهوم العمل داخل المجتمع البدوى؟ الحقيقة هناك العديد من الأنشطة الأخرى بجانب الرعى فمن ناحية تفسير نسق العمل داخل نظام البداوة أو فى ضوء المفهوم الذاتى لمفهوم العمل عامة نجد أنها أعمال أو أنشطة لا تتعلق بالعمل لأنها أنشطة لا ترتبط بمفهوم المنفعة

العامة وهذا منهجيا يتطلب تحليلا خاصا يتفق مع طبيعة الدراسة وعناصرها، فدراسة العمل وطبيعته داخل الحياة البدوية بشكل شامل وأقرب للواقع الاجتماعى، يمكن تصوره على أساس أنه أسلوب تكيفى مع الظروف الأيكولوجية المتاحة، وليس كتقنية وهذا بدوره يجعلنا نفرق بين ما هو تقنية وما هو أسلوب، فالأول يعنى معرفة تجريبية، وأن هذه التقنية تمثل أحد مؤشرات استخدام التكنولوجيا فى أساليب العمل المختلفة التى تعتمد على مبادئ وقواعد وفرضيات علمية متطورة، بينما الأسلوب هو معرفة تقليدية فيها قدر من الثبات والاستمرار التقليدى فى طرق ووسائل العمل ... ومن ثم نتساءل عن مدى إمكانية استخدام أية منها فى ظل التغيرات الحادثة الآن فى المجتمع البدوى؟ فمن ناحية استخدام مصطلح «أسلوب للعمل» فى إطار مصطلح البداوة فإنه يعنى بأنه مجرد «رد فعل طبيعى» تجاه الظروف الأيكولوجية، إلا أن هذا التحليل يجرد العمل من الكثير من المفاهيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كرد فعل اجتماعى تفرضه طبيعة الحياة الاجتماعية السائدة. وبالتالى فهل يصلح هنا الاستخدام المنهجى الوصفى لظاهرة العمل؟ افتراضيا لا يصلح باعتبار أن العمل كظاهرة اجتماعية يمثل مجموعة من الحقائق الاجتماعية التى لا يمكن وصفها منهجيا بقدر أن السمات التكنولوجية المصاحبة لمظاهر العمل يمكن وصفها منهجيا بطريقة تاريخية مقارنة. ولذا فإن عملية تفسير العمل داخل المجتمع البدوى تعتمد على المفاهيم المسبقة حيث نجد أنه يمثل مهمة ثقافية يهدف منها الصعود إلى «المكانة الاجتماعية»، وليس الهدف هنا هو العمل من أجل الإنتاج والحصول على قيم نفعية، وهذا ما سبق تأكيده على نشاط الرعى، وكما

نلاحظه على أنشطة القضاء والمحكمين وقادة المجتمع وشيوخه(*). وعلى هذا فإن النظرية الأساسية فى دراسة البداوة تعتمد على نظرية ثقافية ونسق القيم من حيث إنها لا تأخذ على عاتقها تحديد الاختلافات الخاصة بالميراث الاجتماعى من حيث الاهتمام بالاختلافات والتشابهات بين الثقافات بقدر أنها تأخذ فى الاعتبار أن تبتعد عن عقد المقارنات التقليدية التى لم يستفد منها البحث الأنثروبولوجى على نحو موضوعى، جعلت البحث الأنثروبولوجى يسير فى حلقة مفرغة الأمر الذى يتطلب إجراء القياس المنهجى لنتائج هذا الإطار المنهجى، خاصة أن القياس لنتائج مثل تلك الدراسات يمثل مشكلة منهجية، من حيث أن كل قياس يفترض وجود مقاييس أخرى تعمل كلها على تحقيق نفس الهدف، فالافتراض باعتبار أن تلك المقاييس تسير على نحو متجانس فيه الكثير من المبالغة فى مجال البحث الاجتماعى، ومن ثم فإن الاختيار فى حد ذاته يشكل صعوبة بالغة نظريا ومنهجيا كما أن القياس فى البحث الاجتماعى يصعب أن يعبر عنها بعبارات اجتماعية، فعلى سبيل المثال نجد أن دراسة البداوة دراسة مقارنة مع غيرها من النظم الاجتماعية يمثل تعسفا فى التحليل المقارن، وبالتالى فى القياس، فالتجانس واللاتجانس فى البيانات القياسية هو المعنى فى ذلك بقدر أن ذلك أبعد ما يكون فى القياس فماذا إذن نعنى من ذلك؟ أعتقد أن دراسة النموذج البدوى

- لبيبة محمد موسى : الصفوة واتخاذ القرارات فى المجتمعات التقليدية، دراسة فى الأنثروبولوجيا السياسية المقارنة، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد.

- ..... : مقومات الزعامة فى المجتمعات التقليدية : دراسة فى الأنثروبولوجيا السيكولوجية المقارنة، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد ١٩٧٩.

(*) يؤخذ على العديد من الباحثين إضافة البيانات الرسمية عن مجتمع الدراسة كشكل منهجى دون

يجب أن يقارن بنفس النموذج الثقافى، وليس وفق افتراضات منهجية أخرى وأن لا تكون مقياسا لغيرها من النماذج الأخرى، وملخص ما نعنى به هذا القياس هو دراسة المجال الاجتماعى العام لأشكال العمليات والعلاقات الاجتماعية المختلفة زمنيا ومكانيا.

كما أن القياس المقارن هو أيضا فى حاجة إلى إعادة نظر منهجيا ونظريا، وخاصة أن رؤية المجتمعات أو الثقافات فى ضوء الدراسة المقارنة أو النظرية المقارنة تضع البحث الأنثروبولوجى فى وضع لا يحسد عليه يمكن أن يقال عليه بأنه تعسف علمى وهذا يفقد المنهج المقارن المصداقية العلمية عندما نجد البحوث الأنثروبولوجية تنتهج المقارنة كأسلوب معتاد يجعل من المقارنة أداة منهجية ليس لها مبرر علمى، وهذا ما يمكن ملاحظته فى دراسة البداوة على سبيل المثال لا الحصر، فكل دراسة من دراسات البداوة فى الثقافات المختلفة فى حاجة إلى فروض منهجية مختلفة حتى تصبح المقارنة عادلة وإيجابية، وهذا السياق ينقلنا إلى القياس الإحصائى من حيث الاعتماد فى القياس على الأعداد أو الأرقام الحسابية والإحصائية التى بدورها يمكن الاستفادة منها للإشارة إلى دلائل اجتماعية وثقافية عندما يكون التناول فيه الواقعية والدقة والأمانة وهذا بدوره يدعم النتائج وتخرج بدورها دقيقة على نفس النحو، فالإحصاء لا يستخدم فى البحث الاجتماعى على هوى الباحث، ولكنه تقنية كأداة منهجية، فالإحصاء هنا يتخذ شكلا علميا عندما يستخدم فى تحليل الظاهرة التى يصعب دراساتها بأسلوب الفكر المنهجى العلمى المجرد الصرف، الأمر الذى يجعل من استخدام

الإحصاء يمثل هدفاً معلناً وواضح الاستخدام، وهذا أيضا يخضع لشروط منهجية حتى يمكن الخروج من هذا الإحصاء باستنتاجات تفيد غرض البحث، عندما تصبح الأرقام والإحصاء هو ذلك الشرط اللازم للدراسة أكثر من كونه إحصاء علمي في حد ذاته الذي من خلاله يمكن الاستدلال على طبيعة الظاهرة وما يحيط بها من دلائل يمكن من خلاله التعرف على ماهية البناء العام للظاهرة كأسلوب منهجي في التحليل والتفسير وفي تقييم النتائج(*).

فالدلالة الإحصائية في البحث الاجتماعي لا تمثل منظوراً أحادي الجانب، أو ذا رؤية محصورة ومحددة في جانب ما بقدر أن دلالاته تكون ذات معنى في البحث الاجتماعي رغم كونه وحدة تحليلية محدودة ومحصورة داخل ذات النطاق، وهو ما ينطبق تماما على ظاهرة البداوة في ضرورة الرصد والمتابعة في الحياة الاجتماعية برؤية شاملة حتى يمكن من خلاله التعمق في دراسة الظاهرة الاجتماعية. فاستخدام نتائج الإحصاء وترجمتها إلى مفاهيم اجتماعية وثقافية واقتصادية في دراسة مثل البداوة أو الحياة البدوية كعامل متغير والأخذ باعتبار الثقافة أو النسق القيمي كمعامل ثابت مع التأكيد على أن اختيار وتحديد طبيعة المعامل يمثل قضية منهجية يخضع بدوره لطبيعة النظرية التي يعتمد عليها الباحث في وضع الفروض، وهذا يتطلب المزيد من المراجعة النظرية والمنهجية الدقيقة وهو ما يحتاج إلى وقت وتدريب وخبرة لا يملكها الكثيرون حتى يكون الاختيار موفقا.

تحليلها وإستخدامها كأداة منهجية في التحليل الأنثروبولوجي.

والذى يمكن التأكيد عليه أنه مازال البحث الأنثروبولوجى فى حاجة إلى المزيد من المعالجات لتأكيد أو تصحيح المسارات المنهجية لإيجاد معالجات إيجابية ومعاصرة فى دراسة الظاهرة الاجتماعية. وهذا بالتالى يؤكد على وجود الكثير من القضايا المنهجية التى هى فى حاجة إلى مراجعة ودراسة علمية متكاملة.

المراجع :

أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى مصر، البحث الأول، شمال سيناء، دراسة إثنوجرافية للنظم والأنساق الاجتماعية، المركز القومى للبحث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٩١.

سليمان خلف، الأنثروبولوجيا السياسية، دراسة نقدية للاتجاهات والمناهج فى الأنثروبولوجيا السياسية، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثانية عشر، الرسالة التاسعة والسبعون، ١٩٩٢.

عبد الله عبد الغنى ، التبادل وعمليات الاستثمار والادخار فى المجتمع التقليدى والحضرى، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد، ١٩٧١.

عليه حسن حسين ، التغير الاجتماعي للوادي الجديد : دراسة أنثروبولوجية للواحات الخارجة، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد، ١٩٧١.

فاروق مصطفى إسماعيل، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات اللاتينية فى منطقة غرب مريوط، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد، ١٩٧٥.

..... التغير الاجتماعي فى المجتمع الصحراوى : دراسة فى منطقة مريوط، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. عاطف غيث، ١٩٧١.

فوزى رضوان العربى، نظام وحيازة الأرض وأثره فى النظم الاجتماعية التقليدية دراسة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية رسالة دكتوراة مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد ١٩٧٩.

لبيبة محمد موسى : الصفوة واتخاذ القرارات في المجتمعات التقليدية، دراسة فى الأنثروبولوجيا السياسية المقارنة، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد، أ.د. على أحمد عيسى و أ.د. عبد الرحمن خليفة، ١٩٨٣.

..... : مقومات الزعامة فى المجتمعات التقليدية : دراسة فى الأنثروبولوجيا السيكولوجية المقارنة، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد ١٩٧٩.

محمد عبده محجوب ، الكويت والهجرة، دراسة للآثار الديموجرافية للبترول فى المجتمع العربى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٧.

..... ، نظم الحكم فى المجتمعات القبلية : دراسة أنثروبولوجية مقارنة فى بعض المجتمعات الأفريقية، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، إشراف أ.د. أحمد أبو زيد ١٩٦٧.

..... ، موسوعة القانون العرفي لقبائل أولاد على، العوايد المتبعة والجارى الحكم بموجبها والقواعد الشرعية فى تحديد قيمة الدية والنظارة فى الصحراء الغربية المصرية، ١٩٩٣.

..... ، أنثروبولوجيا المجتمعات البدوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١.

..... ، القضاء العرفى فى شمال سيناء، لجنة جمع التراث بمحافظة شمال سيناء ١٩٩١.

Dirk. Käsler. 1994. Max weber : The Living classic " Sociology in Germany". Development Institutionalization - Theoretical Disputes. in Soziologie. Journal of the leske + Deutsche Gesellschaft für soziologie verlage Budrich. opladen. leverkusen No.3.1994.

Galaty, John G., 1981, Introduction Nomadic Pastoralists social change process and erspectives, E. J. Brill Ieiden. Netherlands.

Gingrich, André 1992. Concepts and confusions, Understanding Middle eastern societies. in current Anthropology.vol. N.1.1992. 33

Harris, Marvin, 1980, History Ideological of the Separation of social and cultural Anthropology. In, Ross, Eric B. cultural Bevond the Mylts of culture, Essys in materialism Academic press N.Y.

Hobart, Mark, (ed), 1993, An Anthropological Critique of development, the Growth of Ignorance, EIDOS university development opportunities (European inter study), London.

Kroeber. A. L., 1963, Anthropology, Culture and the world, Partterns and Processes. Hercaules Brace Inc., N.Y.

Kuper, Adam, 1996, Anthropology and Anthropologists. The modern British School. Routledge. England.

Marx. Emanuel. 1984,Economic change among pastoral Nomads in middle East, in Marx,E. and Shmueli, A. (eds) The changing Bedouin, Tranaction inc., N. J.

Urry, James, 1993, Before social Anthropology. Essay on the - history of British anthropology, Hawood Academic publishers Switzerland.